فى الاســـــــلام

بقلم الاستاذ يوسف أحمد
مفتش الآثار العربية سابقاً

ما كان يختتم به الخطبة فى العصر الاول

كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى نهاية الخطبة سورة «ق» ، وكان عمر يقرأ « إذا الشمس كورت » ، وكان عثمان يقرأ آخر سورة النساء « يستفتونك فى الكلالة » ، وكان على يقرأ سورتى « الكافرون » و « الاخلاص »

وأول من قرأ فى نهاية الخطبة آية « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » عمر بن عبد العزيز بدلا عن السب الذى كانت بنو أمية تذكر به علياً على المنابر .

حدث عمر بن عبد العزيز قال : كان أبى يمر فى خطبته يهزها هزاً، حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين على عليه السلام تتعتع ، فقلت له ذلك ، فقال : يابنى أدركت هذا منى ؟ قلت : نعم : قال : يابنى ، اعلم أن العوام لو عرفوا من على بن أبى طالب مانعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ولده .

فلما ولى عمر الخلافة قطع السب، وجعل مكانه قوله تعالى: « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » وقد لزمها الخطباء إلى يومنا هذا .

وقد أشار إلى ذلك الشريف الرضى الموسوى فى رثائه لعمر بن عبد العزيز بقوله :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ـن قتى من أميـة لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب والشتـ ـم فلو أمكن الجزاء جزيتك
غير أنى أقول إنك قد طبـ ـت وإن لم يطب ولم يزك بيتك
دير سمعان لا عدتك العوادى خير ميت من آل مروان ميتك

قلت : وقد امتنعت عادة سب آل البيت على المنابر بعد عمر بن عبد العزيز، وظلت ممتنعة إلى أن جاء الخليفة أبو جعفر المنصور فأعاد هذه العادة للمقوتة، حيث أمر بسب عبد الله بن حسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب، رضوان الله عليهم أجمعين، على المنابر سنة ١٤٤ من الهجرة لخروجه عليه (راجع النجوم الزاهرة)

وأول من قرأ فى الخطبة آية « إن الله وملائكته يصلون على النبى» للهدى ثالث الخلفاء العباسيين ، وأول من أمر الخطباء بهبوطهم درجة من المنبر إذا وصلوا إلى الدعاء فى الخطبة هو السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى صاحب الجامع المشهور باسمه بشارع المسكرية بجوار باب زويلة (بوابة المتولى بالقاهرة) ليكون اسم الله ورسوله فى مكان أعلى من المكان الذى يذكر فيه السلطان ، وكان ذلك فى سنة ٨١٩ هجرية (١٤١٦ م) وتبعه الخطباء إلى وقتنا هذا .

نوادر بعض الخطباء

حدث التاريخ أن أبا يعقوب البلخى خطيب جامع أحمد بن طولون رقى المنبر وخطب يوم افتتاح الجامع سنة ٢٦٥ هـ بحضور الأمير ابن طولون ، فدعا للخليفة العباسى المعتمد بالله أحمد ولولده ولى عهده جعفر ، ونسى أن يدعو لابن طولون ونزل عن المنبر ، فأشار ابن طولون لخادمه « نسيم » بأن يضربه خمسمائة سوط ، فذكر الخطيب سهوه وهو على مراقى المنبر ، فعاد وقال: الحمد لله وصلى الله على محمد ، « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً» اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ، ثم نزل ، فنظر ابن طولون إلى الخادم وأشار إليه بأن يجعلها دنانير . ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله تعالى وهنأه الناس بالسلامة.

وحدث أيضاً أن علياً بن أحمد بن عبد الملك الفهمى خطيب جامع عمرو خطب بالناس صلاة العيد من سنة ست أو ثمان وثلاثمائة فى الجامع، وهى أول صلاة عيد فى الجامع ، وقد كان الناس يصلون العيد فى الصحراء بقرب عين الصيرة — فحفظ عنه أنه قال : « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مشركون » فقال بعض الشعراء :

وقام فى العيد لنا خاطب فحرض الناس على الكفر

قلت : وقد حصلت أمامنا حادثة مثل ذلك ، فقد كنا إحدى الليالى نسمع القرآن ، فقرأ الفقيه « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله عذاباً أليما » بدلا من « فضلا كبيراً » فقال بعض الحاضرين وكان أمياً : وما فائدة الايمان إذا كان مصيرهم إلى العذاب ؟

ومثل ذلك ما حصل مرة من أحد الفقهاء حيث قرأ « خر عليهم السقف من تحتهم » بدلا من «فوقهم» فقال أحد البنائين الذين كانوا يستمعون له: «ياسيدنا إنما كنتش حاضر هندس».

وجاء عن الحافظ أبى الطاهر السلفى أنه قال: سمعت أبا منصور قسطة الأرمنى والى اسكندرية يقول : كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد فى عيد من الأعياد ، فقيل له: قد قرب منا العدو فنزل عن المنبر ؛ وقطع الخطبة ، فبلغه أن قوماً من الجند عابوا عليه فعله،

فخطب في الجمعة التالية في المسجد داخل البلد خطبة قال فيها : « قد زعم قوم أن الخطيب فزع، وعن المنبر نزع ، وليس ذلك عاراً على الخطيب ، فانما ترسه الطيلسان ، وحسامه اللسان، وفرسه خشب لا تجرى مع الفرسان ، وإنما العار على من تقلد الحسام ، وسن السنان ، وركب الجياد الحسان ، وعند اللقاء يصيح إلى عسقلان » .

قلت : وقسطة هذا هو صاحب مسجد قسطة الذى كان بقلعة الجبل المنشأ سنة ٥٣٥ هـ ومحله الآن مسجد سليمان باشا ويعرف بمسجد سارية .

من أرتج عليه وهو على المنبر فاعتذر بعذر حسن

أرتج على عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين فقال : « إنكم إلى أمير فعال ، أحوج منكم إلى أمير قوال »

وأرتج على يزيد بن المهلب فلما نزل قال :

فان لم أكن فيكم خطيباً فانني بسيفي وإن جد الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلت هذا على المنبر لكنت أخطب العرب .

وأرتج على خالد بن عبد الله القسرى فقال : « إن هذا الكلام يجرىء أحيانا ، ويعسر أحيانا، وربما طلب فأبى ، وكوبر فمتنا ، وانثنى لجيئه أيسر من التعاطى لأبيه ، وقد يختلط من الجرىء جنانه ، وينقطع من الذرب لسانه ، وسأعود فأقول »

وأرتج على أبى العباس السفاح فنزل ثم صعد وقال : « أيها الناس إن الانسان بضعة من الانسان، يكل بكلاله إذا كل، ويرتجل لارتجاله إذا ارتجل ، ونحن أمراء الكلام ، بنا تفرعت فروعه، وعلينا تهدلت غصونه، ألا وإنا لا نتكلم حذراً، بل نسكت معتبرين ، ونتطق مرشدين »

من أرتج عليه وهو على المنبر فاعتذر بعذر قبيح

صعد عبد الله بن عامر على منبر البصرة فاشتد حزنه ، فقيل له : إن هذا مقام صعب فامتحن فيه غيرك ، فأمر وازع بن مسعود أن يصعد ويخطب ، فلما ابتدأ الكلام حصر ، فقال : لا أدرى ما أقول لكم ، ولكنى أشهدكم (أن امرأتى طالق) فهى التى أكرهتنى على حضور الصلاة .

ثم أمر آخر فصعد فأرتج عليه ونظر إلى الصلع فقال : « اللهم العن هذه الصلعة ».

وصعد غياث بن رقاء منبر أصبهان يوم النحر ، فحصر ، فقال : (لا أجمع عليكم عيا وبخلا، ادخلوا سوق الغنم، فمن أخذ منكم شاة، فهى له وعلى ثمنها » .

قلت: وهذه النادرة تذكرنا بأخرى شبيهة لها وقعت هنا فى مصر فى أيام الانتخابات، فقد رشح بعض أعيان الريف الأغنياء نفسه ضد مرشح آخر يؤيده حزب كبير له نفوذ وسطوة فى الجماهير

وكان هذا المرشح الحزبى ، علاوة على نفوذ حزبه، فانه عالم مشهور بالخطابة وزلاقة اللسان، فتركه الفنى الريفى يخطب فى الناس حتى إذا لم يبق بينه وبين يوم الانتخاب إلا أيام معدودات ، دعا هذا الفنى جميع المنتخبين فى الدائرة ، حتى إذا اجتمعوا فى محفلهم الحافل طلع عليهم هذا الفنى فقال: إخوانى أنا لا أعرف كيف أتكلم، ولا لى مقدرة على هذه الثرثرة، وكل ما أقوله لكم هو: «دونكم هذه الأجران بما فيها من القمح ، والشعير، والفول، خذوا منها ماشئتم ، ودونكم أيضاً المواشى فخذوا ما شئتم من جاموس وبقر وغنم وغيرها » وأمر ففتحت لهم الأبواب ، فكانت هذه الخطبة هى أول وآخر ما قيل ، وكان له ما أراد من فوز وظفر .

صعوبة تولى الخطابة

قيل لعبدالملك: لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعرض عقلى فى كل يوم جمعة على الناس؛ وفى رواية أخرى : شيبنى صعود المنابر ، والخوف من اللحن . وقد كان اللحن عندهم يستقبح غاية القبح .

وقيل : نعم الشىء الامارة لولا قعقعة البريد وصعود المنابر .

ما يحتاج إليه فى الخطبة

يجب أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، جهير الصوت ، وأن يضع فى صدر كل خطبة مايدل على عجزها ، وأن يكون فيها آيات قرآنية، وإلا كانت شوهاء ، ولذلك قال عمران بن حطان: أول خطبة خطبتها عند زياد ؛ فقال : هذا الفنى أخطب الناس لو كان فى خطبته شىء من القرآن ؛ وليس من السنة التمثل فيها بالشعر ، ولا يستعمل غريب اللغة ولا سخيف ، ولا يتغنى ، وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة .

ويسن للخطيب أن يشغل يمناه بنحو سيف ولو من خشب، أو قوس أو عصا ونحوها ، ويمناه بحرف المنبر، وأن يكون جلوسه بين الخطبتين بقدر سورة الاخلاص، وأن يقرأها فيه أيضاً، وأن يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة « الجمعة »وفى الثانية بعد الفاتحة «المنافقين» جهراً أو «سبح اسم ربك الأعلى» فى الأولى « وهل أتاك حديث الغاشية» فى الثانية ؛لأنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هاتين فى وقت ، وهاتين فى وقت ، فهما سنتان .

واعتماد الخطيب على السيف فى مذهب الحنفية فى البلاد التى فتحت عنوة بخلاف البلاد التى فتحت صلحاً، فانه يخطب فيها بدون سيف ، والحكمة فى أخذه باليسار كما هو شأن من يريد المقاتلة ، فهو استعمال وليس تناولا حتى يكون باليمين، ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام، فاذا فرغ المؤذن قام مقبلا عليهم بوجهه لا يلتفت يمنة ولا يسرة.

وقد كانت خطبة الجمعة بعد الصلاة كخطبة العيدين، حتى نزلت الآية الشريفة: «وإذا رأوا

تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما » فجعلها النبي قبل الصلاة ، وسببها أنه صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة بعد الصلاة ، فوردت تجارة من الشام فيها جميع مايحتاج إليه الناس من بر ودقيق وزيت وغيرها ، قدم بها دحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان غلاء في المدينة ، فنزل بسوق المدينة ، وضرب الطبل هو أو أهله ، ليعلم الناس بقدومه فيبتاع منه ، وقيل الضارب للطبل أهل المدينة على العادة في أنهم كانوا يستقبلون التجارة بالطبل والتصفيق.

فخرج الناس من المسجد غير ١٢ رجلا ، وفي روايات أخرى غير أربعين أو ٨ أو ١١ أو ١٣ أو ١٤ ، وهذا منشأ الخلاف بين الأئمة في العدد الذي تنعقد به الجمعة وليس هنا موضع استيعابه .

وقد تصادف قدوم التجارة ثلاث مرات متواليات كل مرة في يوم جمعة وقت الخطبة ، ويخرج الناس للابتياع قبل نهو الخطبة ظناً منهم أن الخروج بعد الصلاة جائز لانقضاء المقصود وهو الصلاة ، فلما وقعت هذه الحادثة ونزلت الآية قدم رسول الله الخطبة وأخر الصلاة ، ويعلم من هذا أن النبي كان يخطب قائماً.

قلت : وأول من خطب جالساً معاوية بن أبي سفيان حين ترهل كما نص عليه القلقشندي في صبح الأعشى .

هذا وقبل الختام لابد لي من إسداء الشكر لحضرة الأستاذ الفاضل محمود أحمد وكيل الآثار العربية لتفضله باعطاء الرسوم الخمسة الأولى من محفوظات لجنة حفظ الآثار العربية وهي من رسم حضرة الأستاذ حسن أفندي عبد الوهاب المصور باللجنة ؛ وقد نشرت في المقال الأول عن « المنابر في الاسلام » بالجزء السادس من مجلة « المعرفة » الغراء

يوسف أحمد

واجبك ...! هل أديته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب ...

إن مجلة (المعرفة) سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهي المجلة المصرية التي يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعا له ولغيره .. على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه